وادي الظلال

الجزء الأول

الفصل الخامس

مرت الأيام. وكنا قد تركنا منزلنا الفسيح الجميل الذي استأجرناه أول حلولنا بالقدس، وغيرنا منزلين كل منهما أصغر من سابقه لنستقر في ثانيهما. كان منزلا كئيبا، غرفه معتمة لا تدخلها الشمس، وله فناء داخلي مستطيل ضـيق. وشـغلت أسرة أخرى الطابق الثاني منه، وكان قد فصل بمدخل ودرج مستقلين عن الطابق الأول الذي ألف معه في يوم من الأيام دارا واحدة. كان مدخل دارنا مسقوفا، وفيه حشرنا مكتبة والدي، وينخفض من الباب الخارجي عن الفناء بـثلاث درجـات، اعتدت أن أضع عليها وسادة وأجلس لأقرأ في الأيام الدافئة. وأصبح من المألوف أن أعود من المدرسة لأرى شيئا من أثاث المنزل اختفى ووالدتي تبكـي فراقـه، فأشعر بالكآبة لألفة طويلة انفرطت، فحتى الأشياء تحمل وتجسم ذكريات عزيـز على المرء أن يفارقها. ثم أسلو وأتعزى بالمكتبة الحافلة، ولكن يد الدهر امتـدت إليها أيضا لتمسي ضحية الضائقة.

وصعقت إذ عدت يوما فرأيت الكتب مصفوفة كفصائل جنود في طريقهم إلى الميدان، وبعضها منتثر كفلول جيش مهزوم، فعلمت إلى أيـن مـصيرها وجـن جنوني. إنها عزائي الوحيد.. لتخوي الدار فلا أبالي، وأستطيع أن أحيا في عالمي الخاص المفعم بالصور الجميلة، وأخصب خيالي وقلبي فلا أشعر بوطأة الفقر وألم الحرمان.

وناداني والدي حين رآني:

- هلمي ساعديني على إفراز الكتب. أحضري ورقة وسجلي عنـاوين هـذه الكتب المصفوفة.

- ماذا ستفعل بها؟ هتفت جزعة:

- سنبيعها؛ كان يقف وسط الكتب متخصرا مباعدا بين ساقيه ويجـول بينهـا ببصره بحسرة:

- حرام أن تباع. كلفتني كثيرا هذه الكتب ولن أحصل على عشر ثمنها الآن.

ولم أطق صبرا فانفجرت معولة ووقفت أدافع عن المكتبة العزيـزة دفـاع مستميت عن أماكن قومه المقدسة، عن كنوز لا تنضب من عوالم مدهشة، أفقـت فجأة لأرود آفاقها وانصهرت مع عالمي في بوتقة واحدة حتى لم يعد فصلها عنـه ممكنا.

- لا.. لا! لن أفرط بها، ولا بكتاب واحد. أصبحت ملكي. كل كتاب قرأتـه ملكي. إفترض أنها بيعت كما بيع غيرها وأنفق ثمنه.

وراح صدري يعلو ويهبط بنشيجه، وأنا أضم إليه واحدا إثر الآخـر، أعـز الكتب إلى نفسي التي أبيت فراقها. فغلب والدي حنانه وقال مبتسما وفـي عينيـه نظرة من وجد مهربا من تنفيذ أمر لا يرغبه ولكنه مجبر عليه:

- أمرنا لله! اختاري ما تحبين.

- هذا وهذا وذاك.

وإذا بي أجمع نصف المكتبة، ولا أتخلى إلاّ عن الكتب الفقهية التـي كانـت عزيزة على قلب والدي فامتنع عن بيعها.

وفي ذلك اليوم استدان مبلغا آخر من المال.

كانت تربطني بوالدي علاقة خاصة. فهو اعتبرني دائما ابنته التي تشبهه، أو الأصح التي كانت تشبه الشاب الخيالي المفعم بالطموح والحيوية الذي كانه قبل أن ينغلق في عزلته الصوفية. وهكذا سمح لي بالاقتراب منذ عمر مبكر مـن ذلـك الركن من نفسه الذي احتفظ به بمعزل عن الآخرين حتى عن والدتي. وتقفز بـي ذاكرتي إلى الأمام، إلى يوم توترت فيه العلاقة بين والدي.

لم تكن والدتي لتتدخل في عمل والدي وصداقاته إلاّ بقدر ما تشعر أن سلوكه في عالمه خارج المنزل يهدد عالمها الخاص في داخله: أي أسـرتها وأطفالهـا. وهكذا عندما تأزمت أموره، أضحت تلاحقه دون هوادة، فتتأزم الأمـور بينهمـا. وكانت طبيعته المسالمة التي تكره المواجهة تدفعه إلى التهرب منها وإخفاء الحقيقة

عنها. فإذا اكتشفت أنه لم يصدقها القول كانت تغضب كثيرا وتخاصمه ليس لعـدم مصارحته بالذات، بل لشعورها أن حبه وإخلاصه لها باتا مهددين! وكان غـضب والدتي يتعس والدي كثيرا، فلا يهدأ حتى ترضى وتعود الميـاه إلـى مجاريهـا بينهما. قلت له يومها مداعبة وهو منعزل مع أفكاره ينفث دخان نارجيلته بهـدوء أمام المدفأة وتبدو عليه الكآبة:

- بابا! لماذا لا تصدق ماما وأنت تعلم أنها تستطيع أن تكشف في لحظة. إن لك وجها ينم عليك ولها عينان لا تخطئان الحدس!.

وضحك ضحكة كبيرة كمن ينفض عنه هما أثقله فضاق بـه، وقـال بلهجـة ساخرة:

- يا بنية إن الكذب حلال في ثلاث: في الحرب، وعلى المرأة، وفي إصـلاح ما بين أخوين.

- حقا! ولكن هذا يفقدها الثقة بك. ولو صدقتها الحديث لتفاديتما كثيـرا مـن توتر لا حاجة به.

- "إن النساء ناقصات عقل ودين"، فلو صدقتها كل شيء لبقيت علـى ظنهـا بأني لا أصدقها شيئا! وتابع بلهجته المتهكمة:

- كمشكلة عمر المرأة تماما. فلو صدقت في إعلان عمرها لأضاف سامعوها بضعة سنوات أخرى يظنون أنها اختلستها من المجموع! فهي بحاجة دائمـا إلـى الخصم كما أنا بحاجة إلى التهويل.

وضحكت:

- ولكنك تعرف طباع والدتي المستقيمة. إنها لا يمكن أن تغفر لك. كان عليك أن تفهمها منذ البداية.

فتنهد:

- لا فائدة الآن! إن نظرة الآخرين تفرض نفسها على الإنسان فلا يـستطيع أن يتصرف إلا وفق ما اعتادوا عليه أن يتصرف.

وتوقف برهة وحركة يديه وتعابير وجهه تقول:

- هذا عبث؛ ثم تابع بلهجة من يعلم أمرا أجهله:

- إن من طبيعة الأشخاص أن يكونوا رأيهم في شخص ما، ويبقـون علـى الغالب مخلصين لهذا الرأي رغم خطله.

وقطع فجأة السياق الجدي للحديث وقال ممازحا:

- والآن هل توافقيني بأنني لا أستطيع تغيير عاداتي إلا أن أبدأ من جديد مع من لم يعرف عني هذه الصفات؟ هل تحبين أن أتزوج امرأة غير والدتك لأغيـر طباعي؟

فهتفت متصنعة الذعر:

- كلا.. كلا! من ناحيتي أقبلك كما أنت، ففيك أشياء طريفة جدا، ولـو أنهـا مزعجة لأمي بعض الأحيان!

وأتت ضحكته الكبيرة هذه المرة من أعماقه خالية من الهموم التـي شـغلته. وصمت قليلا ليدخن نارجيلته ثم أفضى إلي:

- يا بنيتي إن أمك تلومني على أمر لا يد لي فيه. إن الضائقة طالت الجميـع وعلينا أن نصبر.

وسألته وقد ذكرت أمرا جديدا:

- بابا! سمعتك اليوم وأنت تصلي عند الفجر تجهر بدعائك بقولك:

- "رب اجعلني فقيرا ولا تجعلني غنيا واحشرني في زمرة المـساكين" فهـل كنت جادا فيما تقول أم أن الكذب على الله حلال أيضا؟

وأجاب وقد ارتسم الضيق على وجهه مشوبا بالغضب:

- إحذري إنك تتمادين! وإني أغفر لك كل شيء إلاّ استخفافك بالأمور الدينية. والآن خبريني: لماذا لا تصلين فروضك؟ إنني لا أعرف لنفسي ابنة لا يرضـى عنها الله.

- بابا لماذا تدور حول سؤالي؟ إنني لا أفهم كيف يختار الإنسان الفقر علـى الغنى، وزمرة المساكين على زمرة الأقوياء المهابين!

- إن الفقراء والمساكين هم أحباب الله. وإن نعيم الجنة خير من كل نعيم على الأرض، وصارت نبرة صوته عاطفية يقينية:

- الفقر يهذب النفوس ويرقق المشاعر ويصقل روح من يصبر عليه. لقد خير الرسول في أن يكون نبيا ملكا أو أن يكون نبيا عبدا فاختار الثانية ليكون مع عامة الناس، وهو الذي دانت له الملائكة، ووعده جبريل بأن يحول له الجبال ذهبا. إنه امتحان من رب العالمين؛ ونظر إلي عاتبا:

- فهل تلوميننني أنت أيضا يا بنيتي، كما تفعل أمك؟

فأجبته برقة:

- بابا إنني لا ألوم، ولكنني أحاول أن أفهم. إنني لا أجد في هذه الحياة التـي نحياها اليوم ما يهذب النفوس ويرقق المشاعر ويصقل الروح، وأنا أشـاهد بـأم عيني الشجار بين أديب وخالد على حصة طعام أو عنقود عنب، فما اعتادوا مثل هذا من قبل. والأنكى أنني أشعر بخجل وخوف أن تهتز مكانتي في نظر زميلاتي ومعلماتي، حتى أنني كنت عائدة يوما مع بعضهن فاستقبلتني رجاء في الطريـق تركض نحوي فرحة بلقائي، فنهرتها وأمرتها أن تهرع إلى البيت لأنني خجلت من ثوبها الممزق الجيوب وحذائها المثقوب، ورحت ألفق الأكاذيب أنها تبلي كل شهر حذاءين؛ ومسحت بيدي الدموع التي انهمرت من عيني وتابعت بصوت متهدج:

- إنني أشعر بخجل ومذلة من الفقر كمن يقترف جريمة، رغم أنني لم أشعر بوطأته كالآخرين. فوالدتي تعتني بهندامي لأنني ابنتها الصبية، وتعجز عن معاملة الجميع بالمثل، فأبقى في مظهر لائق أنيق لا يجعل الشبهة تحوم حـولي. وحـين تطلب إحدى رفيقاتي زيارتي لتدرس معي، أشعر كمن يصب فوقـه مـاء غـال وأعتذر بمختلف المعاذير، حتى لا تأتي وتشاهد حال منزلنا وما نحن عليـه فـي الواقع. ستقول بأنها أشياء تافهة، ولكنها تعذبني في كل لحظة، فكيـف يمكـن أن يعبر الله عن حبه للأشخاص بمثل هذا التعذيب؟

- لا تكوني متمردة. بل استفيدي من هذه الظروف واشكري الله. إن الله يزيد نعم الشاكرين. وليس من ضيق إلاّ ويتبعه الفرج.

ولا أجرؤ أن أسأله وما يعني بالفرج، ولماذا يبغي الفرج ما دام قد فضل الفقر وسيلة للتقرب إلى الله. فلقد علمت بالحدس الذي ورثته عن أمي أننـي اسـتنفذت صبره بالرغم من طيبته، التي تسمح لي بالولوج معه في أحاديث وعتاب لا أجرؤ

يوما على طرقها مع والدتي. وأسجد ناظري إلى النارجيلة يكركر ماؤها مـصفقا وأشرد بعيدا.

إن أسئلة كثيرة تدور في ذهني، ولكني لا أجرؤ حتى على طرح السؤال على نفسي لئلا أتمادى وأضلّ فأستثير غضب الله. وأتمتم طالبة الغفران.

كنت قد عزمت على أمر. وفي ليلة صيفية مقمرة ذات لألاء أضـفت علـى ساحة الدار بهجتها وفاح في الجو عبير ياسمينة، والتف إخوتي حولي متـشوقين لسماع قصة، فما كان كالقصة من وسيلة تجعلهم ليني العريكة مطيعين لأوامري، أبعدت جدائلي إلى الوراء، وأسندت مرفقي على المائدة وارتكـزت علـى يـدي المشبكتين متخذة سمت الكبار:

- كنت أفكر اليوم كم أنا فتاة أنانية!

- ونظروا إلي باستغراب، فهم كانوا ينتظرون مني قصة وليس جلـسة نقـد ذاتي. وانبرت رجاء تدافع عني حتى قبل أن أبدأ حديثي:

- لا! أنت لست أنانية يا أختي.

- أتمنى لو لم أكن كذلك يا رجاء. إنني مقصرة جدا نحوكم وكـان علـي أن أوليكم جزءا أكبر من وقتي واهتمامي. لقد كانت طفولتي سعيدة، فلقد كنت مدللـة العائلة، ولم ترفع يد لضربي. وعبد الرحمن كان يوفر مصروفه اليومي ليفاجئني كل حين وآخر بلعبة أشتهيها، وترونه مكبا في أيام العطلة ليصنع لـي بالخـشب المخرم قصرا للعبي وأثاثا. وفي يوم رحت أنسج له بغير علمه لفحة صوفية، ولم يكن النسج متقنا، ولكن هديتي بلغت منه مبلغا عاد معه في تلك الليلة يحمل دميـة كبيرة في علبة طولها قدمان. فتصوروا الفرح العارم الذي تملكني! كانـت كـل جارحة من جوارحي ترتجف انفعالا، وأحسب أن عبد الرحمن كان سعيدا أيـضا، ولولا هذا لما استغنى عن كل ما وفّره لشراء آلة تصوير ليفاجئني بتلك الدمية. أما أنتم فاسمحوا لي أن أقول بأنكم قطط مستوحشة، تتضاربون وتتـشاجرون لأتفـه الأسباب وتتراشقون بالألفاظ النابية. والذنب ليس ذنبكم فقط، فأنا وأديب مـذنبان أيضا. لقد كان علينا نحن الكبيران أن ننهج نحوكم نهج أخي عبـد الـرحمن. إن

والدي ووالدتي وعبد الرحمن مشغولون بواجبات مرهقة طـوال اليـوم، ولـيس بوسعهم أن يكونوا لنا قضاة كل حين.

- والآن أريد أن أسألكم؛ هل أنتم راضون عن تصرفاتكم معا ومعاملة أحدكم للآخر؟ لا بكل تأكيد. لقد فقدنا كل شيء؛ فهل يجب أن نفقد تربيتنا وأخلاقنا؟ إنكم لا تدرون كم يشقى بابا وماما وأخي عبد الرحمن بنا. ونحـن بـدلا أن نـصرف الوقت فيما لا يعود علينا بغير الضرر. لماذا لا نفعل شيئا مجديا؟ هيا ليدلي كـل منكم برأيه.

كان لكلماتي أثر السحر في نفوس إخوتي، الذين اعتبروا جلسة المـصارحة تلك لعبة جديدة نلعب فيها دور الكبار. فنناقش مشاكلنا بجدية، ونتقدم باقتراحاتنـا لحلها، ونصوت عليها بالأغلبية!

قال أديب متأثرا:

- إني أتقن صنع طائرات الورق. وإذا قبل أخي عبد الـرحمن أن يـساعدني ببضعة قروش لشراء الورق والقصب والخيطان، فأنا أستطيع أن أحقـق دخـلاً جيداً. فالطائرة لا تكلف ربع الثمن الذي تباع به.

وتحمس خالد للفكرة:

- عظيم! وأنا سأساعدك.

فابتسمت:

- إن عبد الرحمن لا يرفض لي طلبا، وسأطلب منه أن يقرضك المبلغ علـى شرط أن ترده إليه حين تقدر على الوفاء.

- أعدك بكل تأكيد؛ قال أديب وعيناه تلتمعان حماسا.

- حسنا. أما أنا فإني أفكر أن أجعلكم بهيئة محترمة. وسأعمل جهدي بمساعدة ماما لتحويل ثيابها، وثياب بابا القديمة إليكم حتى تبدو وكأنها قشيبة.

وفتحت رجاء راحتيها وقالت بيأس حزين:

- وأنا ماذا أفعل؟

- والله لست أدري.. إنك لم تثغري بعد؛ فما هو العمل الذي تتقنينه؟ حـسنا.. لنر.. أعتقد أنه يمكنك أن تغسلي جواربنا ومناديلنا، فبهذا تخففين عن مامـا. مـا رأيك؟ أنقعها بالماء والملح طوال الليل وتفركينها في اليوم التالي بالصابون.

- لا بأس أقبل.

- وسعاد تصبغ الأحذية كل يوم؛ هل تقبلين؟

وأجابت سعاد، وهي تجلس فوق المنضدة والنور ينعكس على شعرها الذهبي ووجهها المرح:

- أقبل بملّ لأشتري مسكة وكاراميل.

وضحك الجميع للفظتي الكاف والراء، وهي تنطقهما صحيحتين بصعوبة، بعد أن اعتادت إبدالهما بالتاء واللام.

واسترسلت:

- حسنا والآن لنعد إلى عيوبنا الأخرى، الكلمات النابية والـشجار ممنوعـان ويجب أن نضع حدا لهما؛ أليس كذلك؟ لنعد بفكرنا إلى كل شـجار حـدث؛ فمـا أصله؟ إشارة نابية، كلمة جارحة، إهانة عابرة.. إنها رأس الشرور. فكيف نـتعلم أن نسيطر على غضبنا؟

وطرأت لي فكرة سارعت إلى طرحها:

- ما رأيكم أن نعلق لوحة من الورق الأبيض المقوي، نكتب عليها أسـماءنا والذنوب التي يقترفها كل منا؟ فبكل تأكيد ستخجلنا هذه الذنوب عندما نراها مسجلة متراكمة أمام أعين الجميع.

وهتف أديب:

- وندفع عن كل ذنب ملاّ.

واعترض خالد زاما شفتيه:

- ملّ لا يكفي، نصف قرش، ونجمع النقود في صـندوق نـسميه صـندوق الذنوب.

وسألت سعاد وقد طربت للفكرة:

- وماذا تفعلون بكل القروش؟

وجمعت أطراف الاقتراحات:

- حسنا ما ارتأيتم. تدفع رجاء وسعاد ملأ عن كل ذنب ونحن الثلاثة الكبـار نصف قرش، ونجمع النقود في صندوق نسميه صندوق الذنوب، وفي نهاية كـل شهر نعطي المبلغ الذي تجمع لأقلنا ذنوبا.

وقال خالد الذي أغمه أن الربح عنه بعيد:

- ولكنك أنت التي تكسبين بكل تأكيد.

فأجبته معزية:

- ولم لا تكسب أنت، إن غيرت عاداتك، وكففت عن ضرب رجاء كل حين، ووضعت أشياءك في مواضعها؟

- أوهذه أيضا محسوبة من الذنوب؟

- طبعا! إن هذا إهمال مرهق لماما. إنني في العطل أكاد أجن وأنـا أطـوف إثركم في كل أركان المنزل لأعيد الأشياء إلى مواضعها. ألست على حق؟ أجبني!

وصمت خالد على مضض وأردفت:

- هل أنتم موافقون؟ لنتعاهد إذن بشرفنا على تنفيذ الاقتراحات التـي اقتنعنـا بصوابها.

وأجابوا جميعا بالموافقة، وتبادلنا القسم بصورة مسرحية مضفين هيبة القانون على اتفاقنا!

- إن وعد الحر دين عليه، وسنرى فيما إذا كنا أحرارا نستحق الثقة والحـب والإعجاب!

وقصصت عليهم قصة السموءل ووفاءه الرائع بالوعد. وكانـت ليلـة تلفهـا هالات السحر، سحر لا يدوم أثره أكثر من يوم أو يومين ليعود الأطفال إلى سابق طباعهم.

وأتت الأيام التالية ملأى بالأعباء التي نئت بها، ففي كل يوم محكمة وقـضاء ومتهم ومدعي وشهود! كذلك لم تكن المهمة التي أخذتها على عاتقي بتحويل الثياب القديمة إلى إخوتي مهمة يسيرة، رغم أن والدتي تحملت في البدء معظم أعبائهـا،

لكنني لم أشأ أن أتوانى ولو قليلا فأمسي قدوة سيئة، وليقيني بأني إن فعلت لفـشل ما رسمناه وانفرط عقدنا قبل أن نبدأ.

وفي يوم ماجت فيه غرفة الجلوس بورق الطائرات الملـون والقـصاصات والأذيال، وعلّق على النوافذ الجاهز منها، وأنا أفتـق ثوبـا وأجـرح إصـبعي، ورجاء بغير انتباه تقلب قنينة الصمغ على طائرة يصنعها خالد فيتميز من الغـيظ ولا يقوى على كبت ما به، فيغيب يده في جيبه ويخرج قرشين ويلقيهما إلي:

- خذيها سلفا، واسمحي لي أن أضرب رجاء أربع مـرات وأشـتمها بـأنبى الكلمات! إني أكاد أجن من غير خصومة أو شجار.

وأجبته بهدوء وأنا أضمد إصبعي:

- هذه لا تكفي إلا للضربات، أما الكلمات النابية فلها حساب منفصل. وبمـا أنها حالة خاصة فسنستشير رجاء إن كانت تقبل ونعطيها المبلغ، على شـرط أن يكون الضرب باليد، وليس صفعا وتحسب الضربات حتى لو تفادتهـا بـالانزلاق منك!

والتفت إلى رجاء وغمزتها فرضيت بالشرط.

وكان منظرا طريفا وخالد يطارد رجاء وأديب يصيح خوفـا علـى الأوراق المبعثرة. واستطاعت رجاء أن تتفادى ضربتين، والأخريين لم تكونا قاسيتين وقد زال التوتر. وانتهى الأمر ولم يشف خالد غليلا، بينما هرعت رجاء إلـى دكـان قريب واشترت بالمبلغ كله أصنافا من السكاكر، وراحت تغيظه وهي تفرق منهـا وتتذوق وتقرمشها من غير أن تضيفه شيئا.

وما لبث أن تسرب الملل إلى نفوسهم، فخرجوا يلعبون على السطح وبقيـت وحدي أكمل فتق الثوب وأنا مستغرقة في التفكير. وأطلّ خالد بعد قليل برأسه من باب الغرفة يسألني:

- ألن تلعبي معنا؟

فأشرت إليه أن يتقدم مني:

- والآن أريد أن تخبرني أية لذة شعرتها في ضرب أختك؟

وأجاب:

- الحقيقة أن اللذة كانت ناقصة. لم أستطع أن أبكيها. لقد ذهب المبلغ الـذي دفعته سدى، وزيادة على ذلك أنها استفادت منه. أحسب أني لا أستطيع احتمـال مثل هذا القانون لأمد طويل.

وسألته باستغراب:

- غريب! لماذا لا أشعر، أنا مثلا، بأدنى رغبة في أن أكـون قاسـية علـى غيري؟

- إن الجميع يدللونك في البيت وفي المدرسة. أما أنا وأديب فوالدي يـضربنا حين يرانا نلعب الكلّة مع أولاد الحارة وعبد الرحمن يضربنا لأننا نقـصر فـي دروسنا، والمعلمون يضربوننا لسبب وآخر، فلماذا لا يحق لنا نحـن أن نـضرب الآخرين بدورنا؟ هذا القانون الجديد لا يعجبني، إنه يحرمني من حقي الذي كنـت أتمتع به من قبل!

وبرقت عيناه بتحد وقد ارتسم على شفتيه المزمومتين طيف ابتسامة، فهززت رأسي لهذا المنطق الذي لم يخطر لي على بال من قبل، فتلك تجارب لم أمر بها:

- أنت على حق، وكلامك معقول. لم أفطن لهذا. ولكنك تعلم أنني لن أسـمح لكم أن تتضاربوا ولا أسمح لنفسي بذلك، لأن الضرب قد يؤدي إلى أذية جـسدية ونفسية، فلا تنازل هنا! بل سأقف بجانبكم ضد أية بادرة ظالمة من والدي أو أخي عبد الرحمن، فلن يكون قانوننا نافعا بدون هذا.

- لا فائدة! ماذا بوسعك أن تفعلي؟

- ماذا بوسعي أن أفعل؟ سترى! يكفي أن أقف دون فرد منكم فينـالني الأذى ليجن جنونهما ويدركان أي خطأ يقترفان.

ولم يلبث أن عاد أديب ورجاء يجران سعاد بينهما وهـي تعـول وتـصيح، وتقول رجاء:

- كانت تنقف أولاد الجيران بملاقط الغسيل.

- حقا! إذن نخصم لها ملاّ عن الغد.

وصاحت سعاد خلال انتحابها:

- وأنا لن أنظف الأحذية.

وثرت بها:

- "إخص" عليك! أنسيت وعدك؟

وهتف الجميع ضاحكين مصفقين:

- هيه! هيه! هيا ادفعي سلمى نصف قرش عن كلمة إخص النابية؛ وكانـت الكلمة شهيرة في فلسطين، ولا يكاد يخلو منها حديث أحد، لكن الجميع اعتبروهـا نابية ولم أعترض، وضحكت قائلة:

- لقد لوثت صفحتي!

وقمت إلى الصندوق وأسقطت قرشا، فما كان من سعاد إلا أن غيضت دمعها وقالت بأسى:

- لا بأس! إخصمي المل وسأبقى دون كاراميل.

وجاء آخر الشهر، وكما كان متوقعا فقد كسبت أنا، لكني أقمت بالمبلغ حفلة شاي عائلية، واشتريت سكاكر وحلوى فرقتها بالتساوي على الجميع.

وأثمرت التجربة تهذيبا عاما وإن لم يكن شاملا، وخففت من وطـأة الأيـام العصيبة داخل البيت وخارجه.

* * *